إجراءات المقاربة السيميائية للخطاب السردي

د. عبد الله تـوام

كلية الآداب والفنون ـ جامعة الشلف

الملخص :

تُوضع السيميائيات كعلم قائم بذاته (علم العلامات) ضمن الحقول والموضوعات الناشئة بين الدراسات العقلية، أمّا إجراءاتها التحليلية فقد استُمدّت من الدراسات اللسانية، حيث عدّت المقاربة السيميائية للخطاب بمثابة الجهاز المحرّك للعمل التأويلي المنتج، وذلك انطلاقا من اقتناع مبدئي مفاده أنّ عناصر الخطاب تتضمن دلالة خاصة وتماسكا فكريا وإيديولوجيا، أمّا المقاربة السيميائية للسرد أو ما يسمى بالسيميائيات السردية، وهي أكثر فروع السيميائيات تطوّرا، فقد اتخذت آليات إجرائية اعتنت بالبحث في البنى السردية وتمفصلاتها الدلالية للولوج أكثر في النص السردي وكشف نواميسه. ويمكن القول: إنّ هذه الآليات المستخدمة قد توحدت نسبيا في المقاربات السيميائية، ومن هذه الآليات الإجرائية: سيميائية اللغة السردية، وسيميولوجيا الشخصيات، وسيميائية الفضاء من خلال بناءيه المكاني والزماني. أمّا الأدوات المستعملة فنخصّ منها بالذكر: المصطلحات السيمايئية مثل: علامة، إشارة ،رمز، ملفوظ، دال ومدلول ...الخ، والأشكال والمخططات التوضيحية مثل: المربع السيميائي والنموذج العاملي الذين اقترحهما جوليان غريماس.

الكلمات المفتاحية: المقاربة السيميائية ; الخطاب السردي ; السيميائيات ;سيميولوجيا

مقـدمة :

يُعدّ موضوع تحليل الخطاب من أكثر المجالات الفكرية والمعرفية تحسسا للتغيرات الحاصلة، ممّا يقتضي أنواعا من الدراسات والمقاربات النقدية الحداثية منها: البنيوية والأسلوبية، والتداولية، والسيميائيات، خاصة هذه الأخيرة التي احتلت مكان الصدارة، وأصبحت من أغنى الميادين داخل العلوم الإنسانية، كونها استمدت أدواتها التحليلية من الدراسات اللسانية التي أعقبت البنيوية، ممّا استرعى اهتمامنا أن نجوس في معالم هذه المقاربة الحداثية ونمرق خلال منعطفاتها لتوضيح بعض آلياتها التحليلية وكيفية التعامل مع النصوص الأدبية خاصة السردية منها.

1 . المقاربة السيميائية :

إذا تحدّثنا عن **المقاربة السيميائية**، فإنّها ظهرت مع الستينيات من القرن العشرين، ضمن معطيات اللسانيات العامة في التحليل النصي، وباعتبار أنّ السيميائيات علم قائم بذاته (**علم العلامات**)، فإنّه لم يجد سبيله إلى التأسيس إلاّ على يد العالمين: اللغوي **فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure** (**1857 . 1913**) **وشارلز سندرس بيرس Charl . S . Peirce** (**1839 – 1914**)، " إذ تنبأ به **دو سوسير** وتصوّره **بيرس** الذي يطمح إلى أن يكون علما لجميع أنساق العلامات لغوية كانت أو غير لغوية "[1]، حيث يرى أنّ السيميائية هي الإطار المرجعي لأيّ ممارسة فكرية، فالرياضيات، الكيمياء،علم النفس وعلم الفلك ... إلخ، هذه العلوم لا يمكن أن تتجاوز دراستها الإطار السيميائي[2].

ويضع **روبرت شولز** السيميائية ضمن الحقول والموضوعات الناشئة بين الدراسات العقلية، وتضع السيمياء نفسها في منطقة الحدود المضطربة بين الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، حيث غالباً ما يعتقد علماء الإنسانيات أنّها صارمة جداً[3]. وهي تدرس العلامات أو الإشارات، وهي لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة الثانوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجيا ودلالياً، وهي علم حداثي بزغت بذوره بداية القرن العشرين[4].

وعلى هذا الأساس فإن القراءة الكفيلة بالكشف عن دلالات الخطاب هي **القراءة السيميائية** المبنية على إقامة مجموعة من الثنائيات الضدية والتقاطبات المكانية والمفارقات الزمنية، تجمع بين قوى أو عناصر متعارضة، فالسيميائية تكون بالنسبة للنقد بمثابة الجهاز المحرّك الذي لا يستطيع التحليل التقدم بدونه لتحقيق عمل تأويلي منتج، وذلك انطلاقا من اقتناع مبدئي مفاده أنّ عناصر الخطاب تتضمن دلالة خاصة وتماسكا فكريا وإيديولوجيا، وأنّ التحليل الدقيق للوظيفة البنيوية هو الذي سيكشف لنا عن الأنساق الدلالية التي تنظمها.

فالتغيّر الذي يحدث على مستوى الخطاب، سواء أكان تغييرا مكانيا أو زمانيا أو على مستوى اللغة يرافقه دائما تغير دلالي، فالتنوع في الأمكنة يستدعي تنوعا في الأزمنة وفي الأحداث، وبالتالي في الدلالات المترتبة عن تلك الأحداث من زاوية رمزية أو إيديولوجية[5].

ولإدراك العلاقات المتوارية في الخطاب السردي، والإحاطة بأبعاده الدلالية والسوسيولوجية والثقافية والحضارية، تقول **جوليا كرستيفا** (**Julia Kristiva**):" أنّ النص ليس نظاما لغويا، كما يزعم البنيويون، أو كما يرغب الشكلانيون الروس، وإنّما هو عدسة مقعرة لمعاني ودلالات متغايرة ومتباينة ومعقدة في إطار أنظمة اجتماعية ودينية وسياسية دائمة "[6]، أي أنّه لا يمكن الفصل بين الدلالة والتواصل، أو بين ما هو لسانياتي وما هو اجتماعي، وقد ألحت **كرستيفا** على ضرورة التوفيق بين الدلالة والتواصل حتى يُتمكن من تحليل الرسائل وفك شفراتها بعد استنطاق النص، ليصبح النص في نظرها بمثابة المقعرات الهوائية التي تستقبل برامج شتى المحطات، وعلى المتلقي أن يقوم بفرزها وتحليل رسائلها وتفسير ما تحمله من أخبار العالم، مستعينا بوسائله المختلفة كالذكاء،الإدراك والتأويل، وهذا التوجه يتلاءم ويتكامل مع علم النص أو النصانية في تأويل النصوص من حيث استثمار وسائل التحليل المختلفة[7].

2 . تطبيق المنهج السيميائي على السرد:

إنّ الممارسة العملية للنقد الحداثي على السرد أصبحت ممكنة، والسرد دلالة قد يعبّر عنها بلغة طبيعية وقد يعبّر عنها بنظام دال آخر، والدلالة عادة ما تكون اتصالا بين متخاطبين (مرسل ومرسل إليه)، وحتى الشخص الذي يحدّث نفسه يكون مرسلا ومرسلا إليه، وقد يتبادلان الأدوار فيصبح المرسل إليه مرسلا والمرسل مرسلا إليه، وإذا كان السرد دلالة واتصالا، فإنّه يعدّ جزءا من السيميائيات، وبالتحديد هو موضوع جزء من السيميائيات يسمى **السيميائيات السردية،** وهو أكثر فروع السيميائيات تطوّرا، حيث **يرى آلجيردا جوليان غريماس Algirdas Julien Greimas** (**1917 . 1992**) ـ الذي يعدّ أحد منشئي هذا العلم ـ إنّ الميدان الذي عرف في السنوات الأخيرة تقدّما جديرا بالذكر أكثر من غيره أوعلى الأقل عرف بحوثا نظرية أكثر من غيره، هو بلا منازع التحليل السيميائي للخطاب، ويعود الفضل في ذلك لجهود الباحث السوفياتي **فلادمير بروب** (**Vladmir propp**) في الدراسات السردية، إذ ركّز

اهتمامه على دراسة الحكاية الخرافية مكلّلا جهده بمؤلفه الشهير الصادر عام **1928** بعنوان " **مرفولوجية الحكاية** "، إذ أحدث هذا الكتاب تطورا في تحليل السرد باعتباره ألمّ بعدد كبير من الحكايات تحليلا ومقارنة، وفيه أخضع الخطاب السردي (الحكايات العجيبة) لأوّل مرة لدراسة لا تقف عند حدود مواضيعه أو تصنيف وحداته المضمونية، بل تهدف إلى مساءلة النص في ذاته ولذاته من خلال بنيته الشكلية واللغوية، ومن ثمّ فإنّها تحاول الكشف عن الخصائص التي تميّز النص عن غيره من الخطابات[8]، باستبعاد المؤثرات الخارجية (النفسية، الاجتماعية والتاريخية) في إنتاجه والتركيز على ما يسمى بالدراسة التركيبية للجمل ضمن ما يسمى بالعلاقات، أي تحليل البنية اللغوية في مستواها الخطي التركيبي، قصد إدراك نمط العلاقات التي تحكم تشكل كل نص والكشف عن البنيات الدلالية وتفرعاتها، ومن خلال مقارنته لبنية الحكايات الخرافية التي تناولها بالدراسة والتحليل توصل **فلادمير بروب** إلى أنّ عدد الوظائف محدّد في إحدى وثلاثين وظيفة يحتويها نص الحكاية الخرافية الواحدة، ولا يشترط توفرها كلّها في بنية الحكاية مرة واحدة، حيث إنّ عدد الوظائف محصور في هذا العدد حسب معطيات النص، وتعتبر الوظائف الثوابت الوحيدة في المسار السردي، بخلاف الأسماء والنعوت الخاصة بالشخصيات المنفذة لهذه الأفعال، فبعدما كان يهتم بالفاعل بوصفه شخصا انتقل التركيز على عمل الفاعل المؤدى والمتمثل في الدور أو الوظيفة التي يقوم بها الفاعل ضمن المسار السردي، وبهذا يكون **فلادمير بروب** قد كرّس المنهجية العلمية في تناوله للنصوص السردية أثناء عملية التحليل،ممّا جعل هذه الدراسة تعد معلمة بارزة في تاريخ **السيميائيات السردية**، بل وأثّرت أيّما تأثير في نشأتها رغم أنّ **بروب** لم يكن سيميائيا ولم تكن في نيته إنشاء **سيميائيات سردية**، بل إنّنا لنكاد نجزم أنّه لولا تأثير عمل **بروب** هذا؛ لما عرفت السيميائيات السردية التطوّر الذي نعرفه الآن، كون أنّ **بروب** يمثل أنموذجا يسمح بفهم أفضل للمبادئ المنظمة للخطابات السردية [9].

إلاّ أنّ هذا العمل لم يبلغ حدّ الاكتمال في صياغة نظرية علمية تحكم تشكل كلّ نص سردي، وكذا إدراك نمط العلاقات التي تحكم تشكّله، إذ أنّه يفهم من خلال الدراسة التي قام بها **فلا دمير بروب**، وباعتبار أنّه من أتباع النقد الشكلاني، ركّز على البنية التركيبية أثناء التحليل وأبعد المعنى، وفي ذلك إخلال بطبيعة العمل الأدبي المبني على شكل ومضمون، وهذا الرأي يتفق عليه بعض النقّاد منهم: **لفي شتروس، غريماس ورولان بارت**، الذين أعادوا قراءة بعض المفاهيم التي أوردها فلادمير بروب، يقول **سعيد بنكـراد** نقلا عن **كلود لفي ستروس** (**Claude Levis Strauss**): " فليس هناك مجرد من جهة وملموس من جهة ثانية، ذلك أنّ الشكل والمضمون من طبيعة واحدة، ويخضعان لنفس التحليل، ما دام المضمون يستمد واقعه من بنيته، وما يسمى بالشكل ليس سوى بنية للبنيات المحلية، حيث يوجد المضمون "[10]، كما أنّ " إنجاز بروب ينطلق من شكل خاص من الإبداع الأدبي لهذا يصعب أن نحصل على تلك النتائج التي توصل إليها التحليل المورفولوجي للحكاية العجيبة في الإبداعات الفردية الأخرى، وبخاصة أنّ النص الأدبي لا يبدو أنّه يستجيب لمواصفات النص القار، فالثابت يتنافى مع الإبداع الفردي، وإن كانت هناك قواعد فهي تخضع للحركة والتحوّل "[11]. إلاّ أنّه ورغم الانتقادات الموجّهة إلى فلادمير بروب، يبقى عمله نموذجا حيا لفهم وتحليل الخطابات السردية في مجملها، ولقد اقترح **غريماس** وآخرون منهم **كلود لفي شتراوس** و**بريمون** تطوير هذا النمـــوذج، بعدما اتخذ **بروب** في دراسته التحليلية للحكايـات **النموذج الوظـائفي**، فطرح **غريماس** . الذي يعدّ

حسب اعتقادنا أهم ممثل لسيميائية السرد . إذ يعتبر **النموذج العاملي** كأداة لمعالجة النصوص السردية، أي بدلا من الاعتماد على الوظائف في تحليل النصوص السردية التي تعطى أهمية أكثر للعوامل وعلى ما يطرأ على أدوارها من تحوّلات على مستوى المسار السردي، أمّا مؤلفه الشهير: **الدلاليات البنوية** (**Sémantique Structural**)، الذي لم تجد الدلالة متنفسا إلاّ في رحابه، يعدّ مطلبا استراتيجيا في البحوث السيميائية التأويلية. ويمثل منعطفا حاسما لتمهيد الطريق للسيميائيات الحديثة وإرساء لدعائمها، وقد " تبنّى فيه **غريماس** مقتضيات الخطاب العلمي التقليدي، وحاول تحليل الأشكال المعقدة للدلالة إلى عناصر بسيطة "[12]، وبالتالي كان يسعى إلى تأسيس نظرية دلالية محايثة تربط بين التحليلين البنيوي والدلالي، وصار له الفضل في إيجاد خطاب علمي حاول من خلاله الجمع بين المنهج اللساني البنيوي وموضوع الدلالة، وإخضاع النصوص الأدبية إلى ما يسمى **بالنسق المفتوح** (**Système Ouvert**)، أي عدم إخضاع النصوص لقراءة واحدة أو قراءتين فقط، وإنّما تكون القراءة مفتوحة ومتعددة ولا يمكن لها أن تنتهي، وذلك لما يحمله النص من تأويلات ودلالات متعددة ومختلفة. إذا كان النموذج البروبي ينطوي على مضامين مستثمرة من الوظائف المحتواة في النص السردي، فإنّ النموذج العاملي يقدّم استثمارات للمضمون في شكل تأهيل[13]، بناء على مفهوم العامل الذي يعتبر ذلك الذي يقوم بالفعل أو يتلقاه سواء أكان شخصا طبيعيا أو موضوعا أو مفهوما[14]، عكس الوظيفة التي تقترن بالشخصية فقط.

3 . الآليات الإجرائية للقراءة السيميائية :

اعتمدت الدراسات التي اتخذت المقاربة السيميائية منهجا لها، آليات إجرائية اعتنت بالبحث في البنى السردية وتمفصلاتها الدلالية للولوج أكثر في النص السردي وكشف نواميسه. ويمكن القول: إنّ هذه الآليات المستخدمة قد توحدت نسبيا في المقاربات السيميائية، ومن هذه الآليات الإجرائية: سيميائية الفضاء الروائي من خلال بناءيه المكاني والزماني، سيميولوجيا الشخصيات وسيميائية اللغة السردية.

3 . 1 . سيميائية اللغة السردية :

تظل **اللغة** هي التفكير والتخيّل في الأعمال الأدبية، إذ لا يعقل أن يتواصل الأديب أو الكاتب ـ بحكم قدراته الفكرية ـ مع أقرانه خارج إطار اللغة، فهو لا يفكّر إلاّ داخلها أو بواسطتها، هي التي تتيح له أن يكشف ما في داخله، إذ يعبّر عن أفكاره وعواطفه ليبلغ ما يصبو إليه، هي مادة الإبداع وجماله، هي مرآة خياله، فلا خيال ولا جمال ولا كتابة ولا قراءة إلاّ باللغة، فهي النبع الذي يستقي منه جميع المتعاملين اللغويين. وقد أجمع معظم النقاد أنّ الكتابات السردية من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على احتواء تجليات اللغة، فإنّه " من الممكن تصوّر رواية من غير أحداث، ولكن لا يمكن تصوّر رواية خارج اللغة "[15].

والخطاب السردي عمل فني جميل يقوم على نشاط اللغة الداخلي، وحين نتحدث عن اللغة لا نريد اللغة بمعنى اللسان (Langue)، وإنّما نقصد اللغة بمعنى اللغة الوظيفية (Language)، التي يكتب بها الكاتب جنسا أدبيا وهي تعدّ كائنا اجتماعيا وحضاريا يسهم في تطوّره المرسل والمستقبل للخطاب الأدبي الذي أساسه نسج اللغة ونشاطها داخله[16]، إذ يتمثل الخطاب السردي في اللغة ذاتها، ويجسّد الملفوظ في شكل كتابة أو بنية خطية، إلاّ أنّه يشترط في هذه الكتابة السردية أن تكون فنية حتى تتميّز عن غيرها من الكتابات في الأجناس الأخرى. والخطاب الروائي باعتباره حضورا خطيا تركيبيا، فإنّه ينخرط في صميم هذا النظام السيميائي، إذ اقترح غريماس نموذجا تحليليا في السيميائيات السردية، يبرز من خلاله المستوى المنطقي والدلالي للنص إذ يعتبر أ محورا دلاليا متمفصلا عبر سيمين متضادين أ1 و أ2، ويقابله محور مضاد له ب يحيلنا إلى وجود سيمين متناقضين هما ب1 و ب2 .حيث يشير السهم من أ1 إلى أ2 و السهم من ب1 إلى ب2 علاقات التضاد ،و السهم من أ1 إلى ب1 ، و السهم من أ2 إلى ب2 إلى علا قات التناقض ،أمّا السهم من أ1 إلى ب2 والسهم من ب1 إلى أ2 إلى علاقات التضمن. ممّا جعل المربع السيميائي يتميّز بخصائص شكلية ،من خلال تنظيم علاقات متنوعة مبنية أساسا على عمليات النفي والتثبيت ، تتوزع على الشكل الآتي :[17]

1 ـ علاقات التضاد : **أ1** عكس **أ2** و **ب1** عكس **ب2** .

2 ـ علاقات التناقض : **أ1** عكس **ب1** و **أ2** عكس **ب2** .

3.علاقات التضمن : **ب1** عكس **أ2** و **ب2**عكس **أ1**

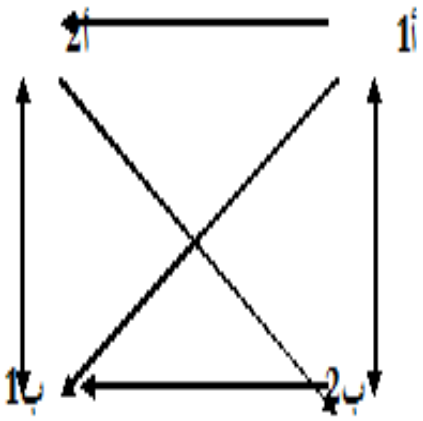

ونلاحظ من خلال هذا النموذج التكويني (المربع السيميائي) أنّ غريماس ارتكز في تحليله للنصوص السردية على عناصر ثلاثة من المربع (أ1 ،ب2 ،أ2 ، ب1) ممّا يوحي أنّه التقط النص في أبعاده الثلاثة بحيث يتم نقل الأحداث من وضع أولي إلى وضع نهائي ، كون أنّ " السرد يقوم في أساسه على التحوّل من طور إلى طور والانتقال من حال إلى حال "[18]، وفق الشكل التالي:

وضع أوّلي ـــــ تحويل ـــــ وضع نهائي .

وبهذا فهو يسعى إلى بناء الدلالة من داخل النص ومن مستويات محددة تحكمها مجموعة من العلاقات والعمليات ندركها بوضوح في الصعيد العميق[19]،وإن على الصعيد البسيط، أي على المستوى السردي المتجلي في البنيات السطحية، إذ تغدو هذه التحويلات مجسدة في عمليات وصل و فصل بين فواعل الحالة ومواضيع القيمة[20].

ويبدو أنّ التحليل السيميائي للخابات السردية يصبو إلى تحليل التواصل اللغوي داخل نسقه النصي لكشف نظام العلاقات داخل النص، وهذا يعني أنّ الكتابات الأدبية تعدّ وسيلة من وسائل التواصل داخل الحقل السيميائي الذي يقدّم العلامة بوصفها أداة تواصلية أو قصد تواصلية[21]، أي أنّ العلامة لا تؤدي وظيفتها السيميائية إلاّ في إطار المقصدية (Intentionalité)، و بذلك فإنّ الكلام سواء أكان منطوقا أو خطابا مكتوبا لا يصبح تواصليا إلاّ إذا كان من يتكلم يفعل ذلك قصدا للتعبير عمّا في ذاته ، كما هو مبين في الشكل التالي :[22]

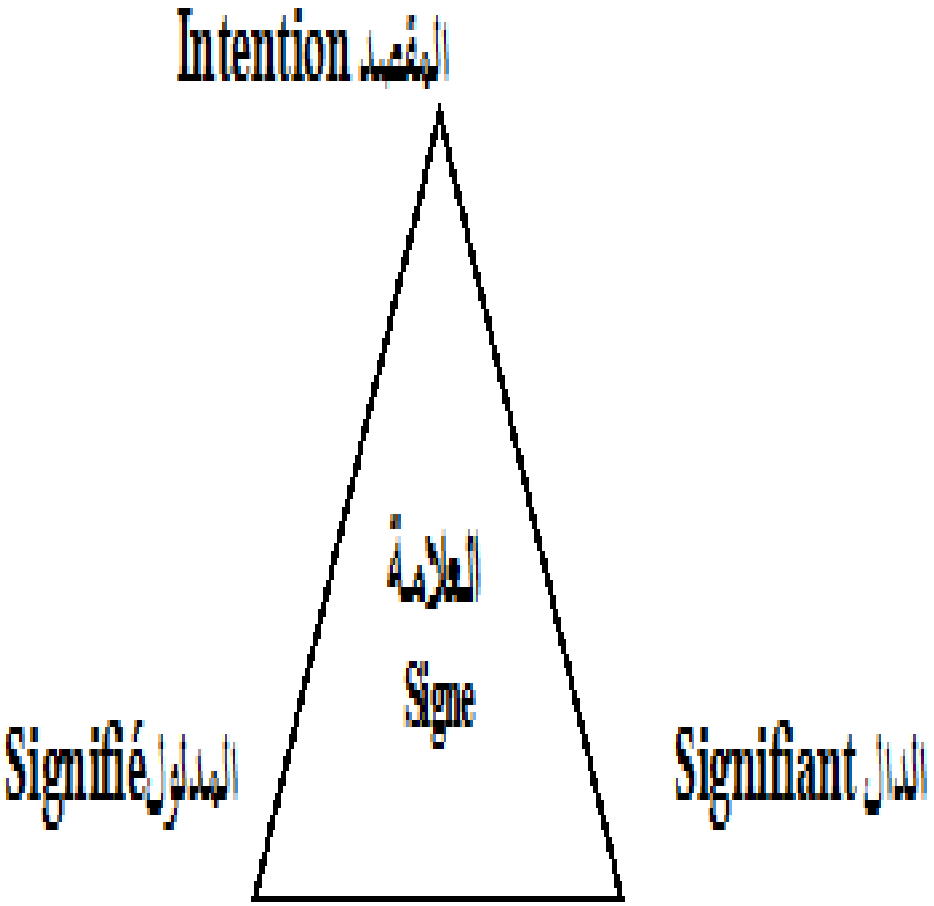

أمّا الباحث السيميائي جوليان غريماس الذي بنى نموذجه التحليلي في السيميائيات السردية على إسهامات اللسانيات المعاصرة في تناول البنية اللغوية للنصوص، فجعل أعماله تتميّز بكم ضخم من المصطلحات السيميائية تتطلب إلماما بجوانب الدرس اللساني المعاصر، إذ بنى تصوره في تحليل النصوص السردية على نظام التقابل بين البنيات السطحية والبنيات العميقة للنصوص، هذه الأخيرة التي ندرك على مستواها دلالة النص السردي، أمّا البنية السطحية فندرك على مستواها أوضاع القوى الفاعلة في البناء السردي والحالات والتحويلات التي تطرأ عليها والمسارات الصوتية المقترنة بها[23]، أي أنّ الدلالة لا يمكن استنباطها من سطح النص فقط، وإنّما يجب استجلاؤها أيضا عن طريق توليد المعنى ،فالنص لا يحقق حضوره على المستوى الخطي (التعبيري) فحسب، وإنّما بكشف البنية المكونة له كذلك. فالدراسة النحوية لبناء الجملة لا تكفي وحدها لتجلي النص ما لم يبذل مجهودا موازيا للكشف عن مضمونه وعن البنيات المكونة له، وذلك بدراسة البنية العميقة التي تعدّ نواة تشكل المعنى، هذا الأخير الذي لا ينتقل إلى القارئ إلاّ من خلال تواصله مع البنية السطحية للنص أو ما يسمى بالدراسة النحوية أو التركيبية للجمل ضمن ما يسمى بالعلاقات، وهذا يقتضي توظيف افتراضات واستنتاجات قصد الكشف عن البنيات الدلالية وتفرعاتها، وهذا ما تقتضيه المقاربات السيميائية فيما يسمى بالتداخل بين البنية العميقة والبنية السطحية، ويرى جوزيف كورتاس (Joseph Courtes) أنّ نقطة الانطلاق في أي مقاربة سيميائية تكون من مخطط مركب من خليط من البنيات الدالة[24].

ويمكن إبراز نموذج غريماس في السيميائيات السردية من هذا المسار المعقد من المحايثة عبر طرحين مختلفين: طرح عميق وطرح سطحي، أو ما يسمى بالبنية العميقة والبنية السطحية، أمّا العميقة فتعنى بتقصي المستويات الدلالية للألفاظ بحصر حقولها الدلالية وإبراز تقاطعاتها العميقة المعنى، المشكلة لنسيج دلالي توفره طبيعة النص السردي المراد دراسته، ممّا يقتضي تفكيك النص إلى وحدات دلالية صغرى، يمكن من خلالها الإمساك بالمضمون، إذ يتحدّد داخل هذا المستوى نمط الكينونة الخاص بفرد أو مجتمع، كما يتحدد داخله شروط وجود الموضوعات السيميائية، وتتميّز هذه البنيات بوضع منطقي، يشكل جذرا مشتركا تكون السردية داخله منظمة بشكل سابق عن تمظهرها من خلال هذه المادة التعبيرية أو تلك[25]، ويقابله على مستوى التعبير، أي على مستوى التجلي الخطابي أوما يسمى بالبنية السطحية وحدات دلالية تشكّل نحوا سيميائيا يقوم بتنظيم المضامين القابلة للتمظهر في أشكال خطابية خاصة، يخضع فيها السرد بكلّ تمظهراته لمقتضيات المواد اللغوية الحاملة له[26]. ولتصل الدراسة التحليلية للنصوص مبتغاها أو هدفها المنشود، على الدارس الكشف عن البنيات المكونة للخطاب بداية باتخاذ المستوى التعبيري (سطح النص) مجالا له، مع الولوج أكثر فيعمق النص لتوليد المعنى، ولذا فإنّ الحديث عن مسار التوليد الدلالي لا ينبثق من خلال إنتاج الملفوظات في خطاب تام، بل يجب الحديث عن البنيات السردية باعتبارها أداة إنتاج الخطاب[27].

3 . 2 . سيميولوجيا الشخصيات :

نتناول **النموذج العاملي** الذي اقترحه غريماس كإجراء لتتبع تمفصلات الشخصية داخل النص السردي، كأداة لمعالجة النصوص السردية ، أي بدلا من الاعتماد على الوظائف في تحليل النصوص السردية التي تعطى أهمية أكثر للعوامل وعلى ما يطرأ على أدوارها من تحوّلات ،وإخضاع النصوص الأدبية إلى ما يسمى بالنسق المفتوح، أي عدم إخضاع النصوص

لنسق واحد وإنّما لعدة أنساق، والذي لم تجد الدلالة متنفسا إلاّ في رحابه ،بل وعدّ مطلبا استراتيجيا في البحوث السيميائية التأويلية.

وتكمن بساطة هذا النموذج في أنّه قائم على **موضوع الرغبة** التي يهدف إليها **الفاعل Sujet**، ولأنّه موضوع تواصل فإنّه يقع بين **المرسل** و **المرسل إليه** ،كما تصاغ **رغبة الفاعل** من ناحيتها بإسقاط **مساعد** و **معارض** ،كما هو مجسد في النموذج التالي :[28]

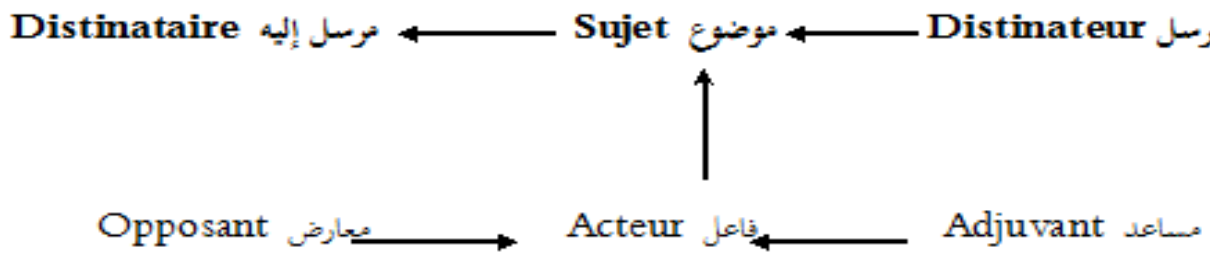

وهذا ما اتخذته مقاربة رشيد بن مالك السيميائية لشخصيات رواية " نوار اللوز "، فصنّفها إلى ثلاثة أنواع: مرجعية، واصلة، وتكريرية، حسب تصنيف السيميائي فليب هامون (PhilipeHamon) لها، إذ انتقل التركيز على الفاعل بوصفه شخصا إلى الاهتمام بعمله أو الدور المؤدى ضمن المسار السردي، " وهكذا فالشخصية لم تعد تحدّد بصفاتها وخصائصها الذاتية بل بالأعمال التي تقوم بها ونوعية هذه الأعمال"[29].

أمّا نظام التسمية للشخصيات فيتمّ من خلال استقراء مدلول أسماء الشخصيات، باعتبار أنّ للتسمية سيميائيات قد تعين القارئ على إعادة بنائها، كون أنّ اختيار الروائي لأسماء معينة لروايته عادة ما يتمّ انطلاقا من الوقع الذي يحدثه المظهر الصوتي للاسم، فيسهم إسهاما كبيرا في تحديد مواصفات الشخصية، باعتبار أنّ الاسم رمز للشخصية داخل المحكي الروائي، وهذا هو تصور رشيد بن مالك الذي لا يختلف عن تصور فليب هامون في عد اسم العلم رمزا للشخصية وأنّه عنصر مهم للتضعيف الدلالي داخل المحكي الروائي، فيقول: إنّ " اسم العلم هو بالتحديد جدّ محروم من أي معنى "[30].

3 . 3 . سيميائية الفضاء :

يعدّ الفضاء عنصرا فاعلا في الخطاب السردي، لأنّه يتميّز بأهمية كبيرة في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث والعلاقات والرؤى ووجهات النظر المختلفة من قبل الراوي، الروائي والقارئ. وهو عالم متناه بالنسبة للباحث السيميوطيقي، يمكن حصره في مكونين بنيويين هما: المكان والزمان وكيفية تجليهما داخل الرواية، وهو ما يصطلح عليه بالزمكان أو الفضاء الروائي، فيرى البعض أنّه " يتحدّد بالمكان في زمان محدّد"[31]، وتوصّل نقاد آخرون إلى أنّ مكوني الفضاء الروائي هما الزمن الروائي (آلية السرد)، وآلية المكان الروائي (آلية الوصف)، وأنّهما مرتبطان في العمل الروائي، وألحّ كثيرون على مسألة تلازم الزمان والمكان، وفي طليعتهم الفيلسوف الفرنسي الظاهراتي **غاستون باشلار (1884– 1964)** من خلال كتابيه: جماليات المكان وجدلية الزمن، حيث تغدو رؤيته الفلسفية إلى تلازم المكان والزمان عندما

يرصد التوافق البطيء بين الأشياء والأزمان، بين فعل المكان في الزمان وردّ فعل الزمان على المكان، أي أنّ الزمان يترك علامـاتـه على المكان، وأنّ المكان عبر تحوّلاته يدلّ على وتيرة الزمان[32].

3 . 3 . 1 . سيميائية المكان :

يعدّ المكان عنصرا حكائيا له دلالته الواقعية والرمزية التي ينهض بها داخل السرد، ولا يمكن الدخول إلى عالم الرواية، لمعرفة أحداثها ووقائعها ودلالاتها إلاّ انطلاقا منه، إذ يمثل الأرضية لتحرك الشخصيات، وقد سجل بعض الدارسين أنّ هذا الإجراء قد أسهم إسهاما كبيرا في استكشاف المعاني و الدلالات في النص السردي، حيث إنّه لم يصبح المكان مجرد ديكور لتزيين المشهد و إنّما تحوّل إلى عنصر حقيقي فرض وجوده في عالم السرد، بل وأنّ جميعهم أكّد على أنّ فاعلية هذا الإجـراء مرهونة بالعمل الإبـداعي وعلاقته بالعناصر البيانية للنص، حيث يرى **هينري ميتران (Henri Mitran)**: أنّه يجب علينا أن نبحث في تمفصل المادة المكانية للسرد أو تمظهراتها السطحية، أي البحث في الوصف الطوبوغرافي للمكان وانتقالات الشخصيات داخل المجال المكاني المحدد لها، وأيضا أن نحاول الكشف عن العلاقات البنيوية العميقة التي توجه النص و ترسم مساره[33]. وهذا ما نحاول الاقتراب منه فيما يأتي من دراستنا للمكان، أمّا البناء المكاني فيتجسّد في الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات، وهو يتمثل في الفضاءات والأماكن الجغرافية التي تتوزع عبر المسار السردي مشكلة فئات تتنوّع من حيث الوظيفة و الدلالة منها:[34]

. أماكن الانتقال العامة: وتتمثّل في القرى والمدن، الجبال والسهول والأحياء والشوارع.

. أماكن الإقامة الاختيارية: وتتمثّل في فضاء البيوت.

. أماكن الإقامة الإجبارية: وتتمثل في فضاء السجون والزنزانات.

3 . 3 . 2 . سيميائية الزمان:

لقد تكاثفت الجهود لفهم مقولة الزمن، وتعددت القراءات لفهم ما أثارته هذه المقولة من جدل، فقد رصدت جهودا عديدة مرورا بالإرث الشكلاني الذي كانت له بصمات واضحة في إدراج مبحث الزمن في المبنى الحكائي، والجهود اللسانية في مطلع القرن الماضي في محاولة لوعي مقولة الزمن، ولإعطاء الزمن أبعاده داخل النص، وقد تمكنت المقاربات الحداثية فيما بعد خاصة البنيوية والسيميائية منها في تحيد مواقع الزمن في النص، وبالتالي أبعاده ودلالاته وعلاقته بالبنية السردية ككل.

وبعدما كانت البنيوية تنظر إلى عنصر الزمن باعتباره من المكونات الأساسية للشكل الروائي والفاعلة في تركيبه، فإنّه ومع السيميائيات تطوّرت أشكال التعامل مع عنصر الزمن، والحاوي للدلالة والتأويل،فاقترح استغلال الوظائف التي ينهض بها في البناء الروائي، فالزمن في المحكي الروائي لا يوجد إلاّ وظيفيا، شأنه في ذلك شأن أي عنصر من العناصر المكونة للسرد، وكآلية إجرائية يجب التطرق إليها في النظام السيميائي، فالمحكي الروائي لا يعرف إلاّ الزمن الدلالي، أمّا « الزمن الحقيقي فما هو إلاّ وهم مرجعي و واقعي، وهذا ما يدلّ عليه تعليق فلادمير بروب»[35].

وحسب ما ورد في مختلف القراءات السيميـائية، فإنّ فـاعلية الزمن تكمن في التكثيف والتوليد الدلالي لا أن نكتفي بأن نقول: إنّ الكـاتب نوّع بين الأزمنة: الماضي، الحاضر والمستقبل، أو أنّه ركّز على زمن واحد، ونجد البـاحث

الدكتور الطاهر روابنية يكثّف بحثه في جماليات فاعلية الزمن في التوليد الدلالي في الخطاب الروائي الجديد متبنيا المفاهيم التي رسختها السرديات الروائية عند جيرار جينات، كما أنّه ركّز على الزمن في دراسته لرواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" لواسيني الأعرج.

وقد لقيت جهود جرار جينات في تحليل الشبكة الزمنية في العمل السردي ـ رغم الانتقادات والتعليقات التي أثيرت عنها ما ينيف عن عقد من الزمن ـ استحسانا ورواجا لدى الكثيرمن الباحثين، أخص بالذكر منهم على سبيل المثال الدكتور عبد الحميد بورايو حين بحث في الزمن في روايتي: "الجازية والدراويش" و" نوار اللوز" لواسيني الأعرج في كتابه منطق السرد حيث أنّه أقرّ في بداية الفصل الأول منه أنّه سيتناول الزمن من المنظور الذي قدمه جيرار جينات[36].

خـــاتمة:

1 . الممارسة العملية للنقد الحـداثي أصبحت ممكنة في قراءة النصوص الأدبية وتأويلها وفكّ إشاراتـها وشفراتها ودلالاتها، والسرد أكثر الأنساق الأدبية التي اتخذت من المظهر الجمالي شكلا لها وتسربت عن طريقه إلى الوعي العربي المعاصر، لكي تضمن لها الاستمرار والترسيخ، إذ أصبحت نسقا يدعي التعبير عن الحداثة العربية في لحظتها الراهنة.

2 . الآليات الإجرائية السيميائية تُخضع الخطاب السردي " لدراسة لا تقف عند حدود تعيين مواضيعه أو تصنيف وحداته المضمونية، بل تهدف إلى مساءلة النص في ذاته ولذاته من خلال بنيته الشكلية "[37]، وذلك باتباع الوصف دون رصد المؤثرات الخارجية في إنتاج النص والتركيز على العلاقات التركيبية المنطقية بتحليل البنية اللغوية في مستواها الخطي التركيبي قصد إدراك العلاقات التي تحكم تشكل النص السردي.

3 . حتى تصل الدراسة التحليلية للنصوص مبتغاها أو هدفها المنشود، على الدارس الكشف عن البنيات المكونة للخطاب بداية باتخاذ المستوى التعبيري (سطح النص) مجالا له، مع الولوج أكثر في عمق النص لتوليد المعنى، ولذا فإنّ الحديث عن مسار التوليد الدلالي لا ينبثق من خلال إنتاج الملفوظات في خطاب تام، بل يجب الحديث عن البنيات السردية باعتبارها أداة إنتاج الخطاب.

المراجع المعتمدة:

[1] أحمد يوسف، تحليل الخطـاب من اللسانيـات إلى السيميائيـات، مجلة نزوى كوم، ص 15، من الأنترنيت، يوم : 31 ـ 01 ـ 2006 .

[2] رشيد بن مالك، البحث السيميائي المعاصر، مجلة السيميائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار، عنابة، أيام: 15- 16- 17 ماي 1995.

[3] ينظر: روبرت شولز، السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، ط1، 1994، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص14.

[4] برهومة عيسى عودة، سيمياء العنوان في الدرس الشعري، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع:25، س:1997، ص142.

[5] ينظر : حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، م.س، ص 90 .

[6] فؤاد منصور، حوار مع جوليا كرستيفا، مجلة الفكر العربي، ع: 18، س: 1982، بيروت، لبنان، ص122 .

[7] سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان، ناشرون، 1997، بيروت، لبنان، ص 33 .

[8] ينظر: سعيد بنكراد، مدخل إلى السبميائية السردية، ط2، 2003، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص10.

[9] ينظر: آلجيردا جوليان غريماس، السيميائيات السردية، المكاسب والمشاريع، تر: سعيد بنكراد، مجلة أفاق، ع:08، س: 1988، المغرب، ص124.

[10] سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، ص16، نقلا عن:

Claude Levis Strauss ,Anthropologie Structurale deux , Plon, Paris,1973, P158.

[11] أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، 2000، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، صص: 42 - 43 .

[12] جان كلود كوكي، السيميائية ـ مدرسة باريس، تر: رشيد بن مالك، 2003، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ص14.

[13] Algirdas Julien Greimas ,Sémantique Structurale ,La rousse ,1er Ed , Paris, 1966 ,p:185.

[14] A.J.Greimas / J.Courtes ,Sémiotique ,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, P 03.

[15] صالح صلاح، سرد الآخر ــ الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ط1، 2003، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 46.

[16] ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ـ بحث في تقنيات السرد، 2005، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، صص: 139 ... 175 .

[17] ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائيات السردية، دار القصبة للنشر ، الجزائر، 2000، ص 16.

[18] محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردي (نظرية غريماس) الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص 47.

[19] ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائيات السردية، م . س، ص 16 .

[20] ينظر: جان آيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، م. س، ص 313 .

[21] ينظر: حنون مبارك، دروس في السيميائية، دار توبقال للنشر، المغرب، ص72 .

[22] قادة غروسي، النص وسيميائية القراءة (مقاربة تأويلية في إشكالية المقصدية) ،بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في النقد المعاصر، إشراف : أحمد يوسف، س.ج: 2003 ـ 2004 ، كلية الآداب ،اللغات والفنون جامعة السانيا، وهران، ص 119 .

[23] ينظر: رشيد بن مالك، السيميائيات بين النظرية والتطبيق ـ رواية نوّار اللوز أنموذجا، أطروحة دكتورة، إشراف: واسيني الأعرج وعبد الله بن حلي، 1995، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، صص: 93 ـ 94 .

[24] Joseph Courtes ,Introduction à la sémiotique narrative et discursive Methodologie et application, Hachette, France, 1980. ,P:37

[25] ينظر: سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، م.س، ص 29 .

[26] يظر: المرجع نفسه، صص:30-31 .

[27] Algirdas Julien Greimas, Du Sens ,Essais Sémiotique ,ed Seul ,Collection Poétique Paris , 1970 ,P: 159 .

[28] Voir : A . J . Gremas / J . Courtès ,Sémiotique ,Discionaire raisonné **...** , P:401 .

[29] حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، م.س، ص 25 .

[30] فليب هامون، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، تق: كليطو، د.ت ، د.ط، دارالكلام، الرباط، المغرب، ص 51 .

[31] عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، م.س، ص 89.

[32] ينظر: إبراهيم صالح، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، م.س، صص: 8 - 9 .

[33] ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، م. س ، ص38. نقلا عن :

Henri Mittrand, Discours du roman, Paris, 1980, P 201.

[34] محمد عزّام، شعرية الخطاب السردي، م.س، صص: 73- 74 .

[35] Reland barthes ,Introduction a language structurale des récit – Un poétique de récit .O .E .C . Col .Ed .Seuil, Paris, 1977,P 26 .

[36] عبد الحميد بورايو، منطق السرد ـــ دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، 1994، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، صص: 116 - 117 .

[37] سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، م.س، ص10 .